

# أربعة قرون على مأساة الموريسكيين

محمد القاضي

أجمعت جل الكتب المهتمة بتاريخ الأندلس على الصورة المأساوية التي عاشها الموريسكيون وهم العرب المنتصرون من بقايا الأمة الأندلسية المغلوبة الذين عاشوا تحت الحكم الإسباني بعد إرغامهم على التنصير زهاء قرن من الزمن، منذ سقطت غرناطة حتى أصدر الملك فيليبي الثالث في عام ١٦٠٩م قراراً بطردهم من إسبانيا بعد أن يئست المحاولات المتعددة والمتعاقبة من تحويلهم عن دينهم واعتناق المسيحية ولكن دون جدوى، فاضطروا إلى مغادرة أراضيهم، إذ منحوا مهلة قصيرة فازدحمت الطرقات بهم واشتد الإقبال على البواخر المنطلقة من السواحل الإسبانية نحو شمال إفريقيا وغيرها.

ترفع لقضاة يحكمون فيها من الجانبين (قضاة مسلمون ونصارى) وكل الموظفين أو المستخدمين المسلمين يستمرون في عملهم. ولكن هل التزم الملوك الإسبان بما تعاهدوا عليه؟ لقد نقضوا العهد بعد ذلك، فكان الاضطهاد تلتته حملة الإبادة والتجهير، واتخذت سمة الاستماتة والعنف داعية إلى وجوب إبادة المسلمين وإخراجهم من الأندلس مهما كلف الثمن.

ويصف المقرئ في كتابه «أزهار الرياض» وصفاً مؤثراً ومؤملاً لما حل بالإسلام والمسلمين من طرف القساوسة الطغاة. «فلو رأيتهم ما صنع الكفر بالإسلام بالأندلس وأهليه، لكان كل مسلم يندبه ويبيكه، فقد عبث البلاء برسومه وعفى على أقماره ونجومه، ولو حضرتم من جبر بالقتل على الإسلام وتوعد بالنكال والمهالك العظام، ومن كان يعذب في الله بأنواع العذاب، ويدخل به من الشدة في باب ويخرج من باب، لأنساکم مصرعه، وساء لكم مفضعه، وسيوف النصارى إذ ذاك على رؤوس الشرذمة القليلة من المسلمين مسلولة، وأفواه الذاهلين محلولة، وهم يقولون: ليس لأحد بالتنصير أن يمتل، ولا يلبث حيناً ولا يمهل وهم يكابدون تلك الأهوال ويطلبون لطف الله في كل حال».

وقد صرح أحد الموريسكيين

غير أن أزمة الأمور قد فلتت من أيديهم ولم تعد لهم قوة لاسترجاع ما ضاع. وكان الملك الأسبانيان قد تعهدا لمسلمي غرناطة بشروط وهي:

١- يمنح الملكان الكاثوليكيان الضمانة الكافية للمسلمين على أملاكهم وثرواتهم وأن يبيعوا ويبتاعوا ويتبادلوا ويتجروا مع إفريقيا بدون أن يدفعوا ضرائب أو الواجبات المفروضة عليهم من قبل القانون الإسلامي. ٢- إن الملكين الكاثوليكيين باسمهما وباسم خلفهما مجبوران على احترام العادات الإسلامية على الدوام بترك مساجدهم وعدم منعهم من الأذان ومن الصلاة ومن تحييس أملاكهم على مساجدهم لإقامة الشعائر الإسلامية، والحكم يبقى مستمراً بين المسلمين على يد قضاة مسلمين حسب قوانينهم وعوائدهم الاجتماعية والمدنية من إرث وزواج كما كانت من قبل.

٣- لا يتابع ولا يعاقب ولا يسب ولا يهان أو يتعرض بسوء لمن خالفوا القوانين وحاربوا ضد النصارى من قبل أو كان له موقف معاد لهم.

٤- يسمح للفقهاء بالاستمرار في التعليم بالمدارس العامة ويتقاضون مرتباتهم والصدقات والتبرعات المخصصة لهم من الأحباس لهذا الغرض.

٥- أي مشكلة تحدث بين مسلم ونصراني

«وقد استقر هؤلاء في أنحاء مختلفة من إسبانيا والبرتغال والمغرب وتونس وفرنسا، بل وصل بعضهم إلى القارة الأميركية».

ويرى د. الحسين بوزينب أن الموريسكي طرف إسباني انصهر فيه العنصر المغربي العربي بالعنصر الأوروبي ولذلك ليس في استطاعتنا اليوم أن نأتي بالبرهان القاطع على صفاء دم الإشبانيين الذين لم يشملهم قرار الطرد ١٦٠٩م من العنصر المغربي العربي، كما لا نستطيع أن نبين صفاء دم من طردوا من العنصر الإيبيري، ومع هذا فإن بعض المؤرخين يغالطون حينما يقدمون الموريسكيين وكأنهم شعب عربي بقي في إسبانيا، لكن مفاهيم القرون الوسطى لم تكن تسمح بالتصرف بغير الطريقة التي تم سلوكها، وعلى أي حال فإن المسلمين وهم الأغلبية واليهود هم الأقلية طردوا من بلادهم وكأنهم أجانب.

وكان الفوج المطرود سنة ١٦٠٩م هو الخامس حيث سبقه الفوج الأول سنة ١٤٨٣م، والثاني سنة ١٤٩٣م، والثالث سنة ١٥٠٢م، والرابع سنة ١٥٧١م، والتاريخ يشهد على أن البشرية لم تعرف مأساة تماثل «مأساة الأندلس» التي تكبدها شعب مسلم كان يوجد في وطنه الأصلي، عمره أسلافه لمدة ٨٩٨ سنة، وكانوا يعتبرون أنفسهم من نبت الأندلس وبالتالي فهم أصحابها الشرعيون،

باحث مصري

## لنجل هذه الذكرى مناسبة لقراءة تاريخنا من جديد

اليوم لا يجدون بدا من الإشارة إلى الحضارة العربية باعتبارها مرجعاً مهماً في حياتهم. فقد عاش الرومان والقوط قرونًا في إسبانيا، فلا نجد في كتاباتهم شيئاً عن تميز لهذه البلاد بزراعة ولا فاكهة ولا خضرة أو تدبير للماء.

كما تجري على ألسنة الإسبان اليوم مئات الكلمات ذات الأصل العربي يستعملونها في مجالات حياتهم ( الفلاحة، التجارة، الحرف، البناء والعمارة، المهن والوظائف، الملابس...).

وتجدر الإشارة إلى أن شخصية «الموريستي» تسلت إلى الأدب الإسباني، فقد استلهم فيه الأدباء ( شعراء وكتاب القصة والرواية والمسرحية) قصائدهم وقصصهم ورواياتهم ومسرحياتهم، وذلك في عصره الذهبي، وقد خصص د.حسن الوراكي دراسة مهمة عن ملامح من صورة الموريستي في الأدب المسرحي الإسباني. خرج الموريستيون من إسبانيا وتركوا فيها حضارة لا يمكن أن تموت، يجني منها الإسبانون ملايين الدولارات عن طريق السياحة.

وبالنسبة لأولئك الذين اختاروا الإقامة في المغرب، فقد وجدوا فيه كل عناية وترحيب في كل مكان نزلوا به (تطوان، شفشاون، فاس، سلا، الرباط، وبعض بوادي شمال المغرب) وقد استفيد من خبرتهم ومهاراتهم في سائر مرافق الحياة اليومية سواء تعلق الأمر بالفلاحة والتجارة أو بالشؤون الثقافية والعلمية، وقد حافظت تلك الجماعات على أسمائهم وألقابهم الأندلسية حتى اليوم، ومنهم من احتفظ بمفاتيح منازلهم التي حملها أجدادهم على سبيل الذكرى نذكر منهم «الغرناطي، الراندي، وبيصة، وابن

»لقد كنا مضطرين أن نظهر لهم ما كانوا يرغبون فيه منا، وعكس ذلك، فإنهم يسوقوننا إلى محاكم دواوين التفتيش بسبب اتباعنا الحقيقة، لقد حرمونا من الحياة والأملاك والأبناء وزجوا بنا في سجون مظلمة لأتفه الأسباب، ونظرنا لأفكارهم السيئة أيضًا فإنهم يبقوننا سنين عديدة، في الوقت الذي يستولون فيه على أملاكنا التي صادروها، ويستغلوننا، ثم يقولون إن ذلك الفعل مبرر وعلى ضوء ذلك فإنهم يخفون أفكارهم السيئة وسريتهم المظلمة، أما أطفالنا فإنهم عندما يكبرون يافعين يربونهم على منوالهم ويصبحون مرتدين، أما إذا كبروا فإنهم يسعون إلى الهرب بالإضافة إلى ذلك فإن حكام دواوين التفتيش يفتشون عن كل الوسائل للقضاء نهائياً على هذه الأمة . وأمام هذا التعت وتعت وهذه المصادرة فقد وجد الموريستيون في لغة «ال لخميدادو: AIJAMIADO» (وهي القشتالية المحرفة تكتب بحروف عربية) متنفساً لتفكيرهم وآدابهم ولأدعيتهم وصلواتهم وكتبهم الدينية، وقد تركوا تراثاً أدبياً من النظم والنثر، وقد عثر على مجموعة من المخطوطات صدفة «في أكثر من مناسبة بعد إخفائها قديماً في تجاويف جدران المنازل وبين السقوف وفي المغارات وكذا في مخابئ أخرى وهو أدب هجين تمتزج فيه العربية والإسبانية في شتى المستويات بشكل لا نظن أنه عرف قبل هذا بين اللغة العربية ولغات أخرى، وقد تمخض هذا المزيج عن نتاج معبر أيما تعبير وممثل أيما تمثيل لكيان أصحابه ولهويتهم الثقافية، فهذه اللغة الموريستية تعكس بوفاء كبير شخصية مجموعة إسبانية متميزة داخل الجزيرة الإيبيرية» .

### والنتيجة؟

وماذا كانت النتيجة إذن؟ إن إسبانيا لم تجن من هذه الاضطهادات المخزية إلا الضرر والتخلف عن مسيرة الركب الحضاري والثقافي والصناعي الذي عرفته أوروبا. ورغم كل الجهود التي بذلتها الكنيسة الكاثوليكية الإسبانية من أجل محو أي آثار للوجود الحضاري العربي والإسلامي في شبه الجزيرة الإيبيرية، فإن سكان إسبانيا

عبدون، وعذرون، وبرهون، والحضري، وبيرميغو، وهرانكو، وقشتول، ومريون، وقشتيلو، ولقاش، وبلانكو، وأندلسي، وطنانة، وبلامينو، والرندة، وكليطو، وبريطل، وجوريو، واشماعو، وكراكو، وغيرهم»، وقد قام الباحث محمد بن عزوز حكيم بتوثيق الألقاب والأسماء التي كانت تتخذها أسر موريستية نزلت بتطوان (شمال المغرب) وهي أسماء قشتالية أصلاً، أو هي قشتالية نطقاً، عربية أصلاً، أصبحت أسماء لأسر عربية مسلمة أريد لها أن تكون قشتالية. وكان لاستقرار الأندلسيين في المغرب الأثر الكبير في ازدهار حركة العلوم والآداب والفنون والمعمار والصناعة.

أما عن مصير اليهود الإسبان الذين صدر في حقهم مرسوم الطرد من بلادهم التي عاشوا فيها قرونًا طويلة، فقد استطاعوا في السنوات الأخيرة وتحت ضغط إمبريالي صهيوني وإسلامي تشهيري أن ينتزعوا من الحكومة الإسبانية اعتذاراً رسمياً وعلنياً عما صدر من حكم تسبب في طردهم من إسبانيا، دون الإشارة ولو بكلمة على الصعيد الرسمي الإسباني إلى ما لحق بالمسلمين رغم أنهم كانوا أكثر عدداً من اليهود، وكان الباحث المغربي محمد بن عزوز حكيم قد وجه رسالة إلى الملك الإسباني خوان كارلوس ٢٠٠٢/١/٢ أيده فيها المؤرخ الإنجليزي «مسترجيس» يطلب فيها من التاج الإسباني بأن يعتذر للمسلمين «ولكي يسجل التاريخ، وتعلم الأجيال اللاحقة فإننا لم ولن ننسى أبداً «مأساة الأندلس» فقد قمنا بواجبنا قدر الإمكان نحو الشعب المذكور، حيث طالبنا مراراً وتكراراً من التاج الإسباني بأن يعتذر للمسلمين على غرار ما قام به مرتين نحو اليهود السفرديين»

وأخيراً لنجعل من هذه الذكرى المؤية الرابعة مناسبة لقراءة تاريخنا من جديد ولنأخذ العبر من الأحداث المهمة التي عاشها أجدادنا ونقومها بموضوعية علمية مجردة. فهل نحن فاعلون؟ وهل يعتذر الإسبان للمسلمين ونحن نعيش عصرًا جديدًا؟